السعادة: هل يمكن بلوغها وما هي شروطها

تعاليم المعلم برمهنسا يوغانندا

ترجمة محمود عباس مسعود

عندما يمتلك الإنسان الإيمان الصحيح ويعمل بموجبه يكون أكثر سعادة من أولئك الذين يعوزهم الإيمان ولا يقومون بأداء الواجبات المترتبة عليهم في معركة الحياة.

فالإيمان السليم والعمل الصحيح (المدعوم بالدوافع النبيلة والنوايا الطيبة) موجودان دائماً وأبداً حيثما وجدت السعادة ومفقودان بفقدانها. من هنا يمكننا الإستنتاج أنهما شرطان أساسيان للسعادة التي لا يمكن تحصيلها بدونهما. فليس على الراغبين في امتلاك السعادة إلا امتلاك هذين العنصرين الأساسيين اللذين هما ركنا السعادة ودعامتاها.

لا يستطيع الإنسان أن يتحكم – على هواه – بمكونات الكون اللامتناهية، أو تعديلها أو محوها.. فتلك المكونات ترتبط خيوطها الدقيقة ارتباطاً وثيقاً بنسيج حياته ولا يمكن له العمل بمعزل عنها. لكن باستطاعته أن يتحكم بعقله بحيث يتأقلم معها فلا تلحق به الأذى.

أسلافنا كانوا أكثر سعادة منا ليس لأنهم امتلكوا من الأشياء والمتع الدنيوية أكثر مما نمتلكه الآن، أو لأنهم كانوا أقل عرضة لمشاكل الحياة، بل لأنهم امتلكوا التوازن النفسي الذي منحهم الراحة والسلام والقناعة وباختصار.. السعادة.

لم يعتمدوا على ظروف خارجية لإسعادهم، ولم يستسلموا لظروف خارجية من شأنها أن تفقدهم سعادتهم. فشعورهم بالراحة والسلام والسعادة والرضى كان شعوراً اعتيادياً، طبيعياً، صحياً ومستداماً. ونحن أيضاً ينبغي أن ننمي ذلك الشعور فيما إذا رغبنا بامتلاك السعادة. ومن منا لا يرغب بامتلاكها؟!

القدَر هو نتيجة ممارسة سابقة للإرادة الحرة أو حرية الإختيار. فبممارساتنا الماضية لحرية الإرادة جلبنا ونجلب على أنفسنا القضاء والقدر. لكننا لسنا مكبلين بالماضي ولسنا مقيدين بنتائج أعمالنا إلى الأبد، إذ بإمكاننا أن نقتلع ما زرعناه ونمحو ما كتبناه فيما إن نحن رغبنا بذلك وعملنا جاهدين على تصحيح المسار وتحسين نوعية الثمار.

فإن قضينا على بذور الأفعال ذات النتائج المؤلمة وغرسنا بدلاً منها بذورا أكثر ملاءمة لطبيعة النفس فلا بد أن نجني ثمار السعادة من تلك البذور الصالحة المستنبتة في تربة النفس. لا بد لنا من ممارسة الإرادة الحرة الآن، الآن وليس غدا، إن نحن رغبنا بتحصيل مقدار أكبر من السعادة أو بتقليل المعاناة والألم.

وعليه فإن شروط السعادة كامنة في ذات الإنسان وما عليه إلا أن يتعامل بجدية مع تلك المعادلة التي لا تخطئ وستكون النتائج لصالحه إن هو أحسن التقدير والتعامل.

الماضي مجهول لمعظم البشر باستثناء قلة قليلة من المستنيرين. ومع ذلك فإن جهلنا بالماضي هو أيضاً لصالحنا. فلو عرفنا كل ما فعلناه في هذه الحياة وفي حيوات سابقة لهذا التجسد لصُعقنا للتراكمات الهائلة ولأصبنا بالذهول ، بل ولربما أصيبت إرادتنا بالشلل التام من هول المفاجأة فنعجز عن مواصلة السعي ونقع فريسة الإحباط.

وحتى في هذه الحياة الدنيا فإن النسيان نعمة من نعم الله، فلا تطغى على فكرنا وشعورنا تذكارات الماضي، لا سيما المُرة والأليمة منها.

لكن لحسن الحظ فإن الشرارة الإلهية بنا دائمة التألق بالأمل وبالرغبة في مواصلة مسيرة الحياة التي لا تتوقف. ويجب أن نشكر الله على هاتين النعمتين: نسيان الماضي والأمل بالمستقبل.

يجب أن لا نستنتج أن القدر يضع عوائقَ أمام حرية الإرادة، ومع ذلك علينا أن نبذل قصارى جهدنا لمقاومة المؤثرات السلبية التي يعزوها معظم الناس إلى القضاء والقدر، وممارسة حرية الإختيار بحسب قناعاتنا الباطنية شرط أن تكون تلك القناعات قائمة على الإيمان الصحيح ومرتكزة على القوانين الإلهية التي لا يمكن للإنسان أن يتذوق طعم السعادة الحقيقة دون مراعاتها والعمل بموجبها.

عندما نشرع في عمل ما ينبغي أن لا نرهب الظروف المعاكسة، بل يجب أن نكون متفائلين إلى أقصى حدود التفاؤل، مع إيمان مطلق بأن لا شيء يمكن أن يقف عائقاً في سبيل تمرين الإرادة وممارسة حرية الإختيار.

إن لم ننجح في تحقيق مبتغانا فلا بأس من الإعتراف الضمني أن هناك أموراً معاكسة من صنع أيدينا حالت دون بلوغ الهدف، ولا بد من المثابرة ومضاعفة المجهود لبلوغ المقصود. كما يجب أن نؤكد لأنفسنا أنه مهما كانت العوائق والعقبات قوية وعاتية لا زلنا نملك ما يكفي من القوة لإزاحة تلك العوائق والتغلب على تلك العقبات.

وحتى إن أخفقنا بالرغم من كل المحاولات، فلا داع للقنوط والإحباط ما دمنا ندرك أن إرادة الإنسان أقوى من القدر الذي هو من صنع يديه، ولذلك يجب أن لا يكف عن المحاولة مهما فشل في مسعاه لأن هناك أبواباً مفتوحة دائماً وأبدا وما علينا إلا أن نواصل السعي ونكرر المحاولة حتى يكتب لنا النجاح. فالله يمدنا بالعون ما دمنا نتوكل عليه ونبذل المجهود. فمن سار على الدرب وصل، وما خاب من على الله اتكل.

والسلام عليكم